الاختفاء حالة نضالية

في رواية "الثلج يأتي من النافذة"

بقلم محمد الجزائري

حين كان ، في بغداد ، يتحدث لي عن ذكرياته واسفاره ، وعوالمه في « الصين الشعبية » وغيرها ، ومجمل ذكريات حياة المنفى ، كنت ابتسم ، وانا اصغي باهتمام ، لتلقائيته وطيبته وحبه لذكرياته .. اذ كنت اعتقد ، ولا زال اعتقادي قائما ، بأن حنا مينه سيحول تجربته الحياتية هذه الى عمل روائي ، او انه ـ في الحد الادنى ـ يستفيد منها ، كجزء من لوحات عمل روائي جديد ..

كانت « الثلج يأتي من النافذة » قد صدرت توا ، .. فاحسست انه حين يتحدث عن ذكرياته .. فهو ، يتحدث ، كما تحدث مارون عبود عن روايته « فارس آغا » ، بمحبة وشوق .. والسبب ـ كما يقول حسين مروة ـ : « كانت علاقته ليست علاقة المؤلف بما يكتب وحسب، بل هناك فضيه اعمق من ذلك والصق بنفسه وحياته ، هي انه عاش عمره الاول وهو واحد من هذه الاشياء والاشخاص والحيوات ، وعاش عمره الثاني وهو يستعيدها لا كذكريات بل واقعات يحيا بها من جديد ، كما حياها اول مرة » ..

وفي العمل النضالي السري ، يشكل الاختفاء حالة نضالية ، في التمرس العملي والنشاطية الاجتماعية ، العامة .. ففي الاختفاء تتدافع الذكريات ، بتدفق حار ، على المناضل ، وتنمو وتتسع في ذهنه لدرجة الاحاطة حتى بتفاصيل صغيرة ، صغيرة ، لتشكل ، بعدئذ ، وعبر تحويلها الى عمل ادبي ـ وحدة عضوية لجميع التناقضات المتصارعة في اطار ظروفها الزمانية والمكانية الخاصة ـ وعبر فهم هذه الوحدة ، يتم فهم ـ طبيعة الاحداث وترابطها ترابطا عضويا في صلات الزمان والمكان ، وصلات الناس والاشياء وانتظامها كلها في هذه الوحدة العامة .. ـ

وفي « الثلج يأتي من النافذة » رواية الاستاذ حنا مينة الثالثة ـ بعد « المصابيح الزرق » صدرت عام ١٩٥٤ ، و « الشراع والعاصفة» صدرت عام ١٩٦٦ ـ تكون حياة البطل « فياض » في الاختفاء ، نموا واتساعا لتلك الصلات في « شبه حركة تسلسلية » قد لا تعطي النتيجة الواضحة منذ الوهلة الاولى ، لانها « تتأبى على الرؤية الصريحة » احيانا ..

وهذه الرواية تأتي في تناولها ، جديدة ، في الادب العربي الحديث .. لو استثنينا « في بيتنا رجل » لاحسان عبد القدوس ، التي كان البطل فيها ـ مختفيا ايضا ، مع الفارق بين الطبيعة النضالية لذلك البطل ـ وفياض .. فبطل عبد القدوس مغامر ، فوضوي النزعة، يؤمن بالاغتيالات السياسية كطريق اوحد لمواجهة المحتلين .. صحيح ان نجيب محفوظ تناول في « الشحاذ » شخصية مناضل مختف ايضا لكنه لم يكرس لها كل مساحة الرواية ، كشخصية محورية ، كما هو الحال في « سعيد مهران » اللص والكلاب ..

لذا ، فاننا سنتناول ، هنا ، الاختفاء كحالة نضالية واجهها « فياض » خلافا لمعتقد الاستاذ فاضل السباعي الذي يعتبر الاختفاء هروبا من ساحة النضال (١) .. كيف ولماذا ؟

ثمة تعريف للسياسة بأنها « فن الممكنات من الامور » ، والكاتب المعارض حين يتحول الى سياسي ، يمارس في النضال السري ، حالة اختفاء ، فهو هنا يمارس الممكن من الامور لخلق الضروري .. ، وهو لا يمكن ان يكون ـ بالضرورة ـ كاتبا معارضا.. فأن الانخراط في العمل السياسي هو الذي يكسب شخصية البطل الصفة النضالية ، ويظل بعد ذلك الجانب الآخر من شخصيته (كونه كاتبا معارضا) ذا تأثير في مساره النضالي بالانسجام مع مجمل نشاطاته النضالية .. لذا فأن كتابة منشور سري ، او مقالة باسم مستعار ، او اي نشاط آخر ، هو اسهام في المجرى العام النضالي ، للحركة السياسية التي ينتمي اليها البطل فياض ..

و « التواري في بيوت الاصدقاء ، اتقاء الاعتقال » حالة صحية للمناضل ، وليس « نضالا مفقودا » .. لان التفريط بأي مناضل ، موقف سلبي تتحمله الحركة السياسية كلها ، وبالتالي فهو خسارة لهذه الحركة مهما كانت درجة تقدم المناضل في تسلسله التنظيمي وسعة مسؤولياته ..

والعمل السري ، لا يعني عدم التحرك والنضال « على الطبيعة » ، فوضع « فياض » في « قبو يحتوي على مطبعة سرية تقوم بطبع المنشورات السرية » هو حالة نضالية دقيقة ، وحساسة ، ومهمة ، لان اجهزة الحزب الفنية ، في العمل السري ، هي من أهم الاجهزة خطورة وحساسية ، وهي من اكثر ما تبذل السلطات الرجعية من جهد في البحث عنها وتصفية كادرها ، لذا فليس عفويا اختيار الكادر الذي يعمل بها او يشرف عليها ، فأختيار المناضل لمثل هذه المهمة ، هو الاختيار الصعب ، عادة ، لان طبع منشورات الحزب السرية ، هو الرئة التي تتنفس منها الحركة السياسية ، فكريا ودعائيا ، في ظروف العسف والاضطهاد والملاحقة وخنق الحريات الديمقراطية او غيابها ..

---

١ ـ راجع الآداب العدد الثالث اذار ١٩٧٠ ص ٦٥ : البحث عن « النضال » المفقود في رواية « الثلج يأتي من النافذة » دراسة ونقد بقلم فاضل السباعي ..

خاصة وان جريدة الحزب تشكل في مثل هذه الحالة « منظما جماعيا » .. لذا فاختيار فياض لهذه المهمة جاء توافقا سليما لحالته العامة التي تريد العمل « على الطبيعة » وهي حالة نضالية ، من ادق الحالات واشقاها واكثرها خطورة ، والتقليل من اهميتها هو جهل واضح لطبيعة العمل السياسي السري ، بالتأكيد ..

وباعتقادي ان الصفة الاخرى « الكاتب المعارض او الفنان او الاستاذ الجامعي او العامل الفني ، او غيرها .. » التي تميز المناضل ، قبل خوضه العمل السري ، في حالة الاختفاء ، لا تعني عدم تحبيبه « الى نفوس الجماهير » ان هو تخلى عنها ، لضرورات الاختفاء ، اذ ان عضو الحزب الثوري يذوب وينخرط في مجمل العمل المعارض ، حتى لو كان يمارس مهمة بسيطة داخل خلية مرشحين ، فسيظل ، حتى في مثل هذه الحالة ، ذلك « البطل الحقيقي الذي يجترح الخوارق وينافح عن مثل غالية » .

ان النضال ، على اية ارض ، يلتحم بمعطيات الحركة الثورية في كل مكان .. واننا اذا تجاهلنا هذه الحقيقة ـ كما تجاهلها اعلامنا العربي طوال عمره المديد ! ـ وبخاصة فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية ـ مثلا ـ فاننا لن نحقق تقدما في كسب عنصر واحد من عناصر الرأي العام العالمي لتعميق قناعته بعدالة قضيتنا ..

لذا ففي فهم معطيات النضال ، والعمل السري والاختفاء بخاصة، كحالة نضالية يكون المرتكز الاساس لفهم مجريات « الثلج يأتي من النافذة » وخلاف ذلك يسقط الناقد في الفهم الميكانيكي للعمل النقدي ..

ان الناقد الاستاذ فاضل السباعي ـ وهو روائي سوري ايضا ـ لم تتوافر له ـ مع الاسف الشديد ـ الحساسية الذاتية القادرة على اكتشاف القيم الخاصة في حالة الاختفاء ، لانه ـ كما قدر لي ـ لم يتبع « منهجية نقدية » ذات اساس ، موضوعي ، في احكامه وتقديراته، وحتى عواطفه !

فماذا ترى « المنهجية النقدية » في العمل الادبي ، يا ترى ؟..

ترى « المنهجية النقدية ان كل عمل ادبي لا بد ان يحتوي نوعا من التجربة التي لا تتكرر عند فنان آخر ، بل لا تتكرر ، حتى في عملين صادرين عن فنان واحد .. » وهي « لا تقتصر على عدم انكار القيم الخاصة في العمل الادبي ، بل هي ترى ضرورة وجود هذه القيم ما دامت الشخصية الانسانية ذاتها ، وبوجه عام ، متنوعة الخصائص ، متعددة الجوانب ، بقدر تنوع الشخصيات وتعددها » .. (٢)

ولكي نعطي موضوع الاختفاء كحالة نضالية ، دلالته الواضحة ، لا بد من التعرف على القيم الخاصة في « الثلج يأتي من النافذة » ، بل وفي « الشراع والعاصفة » ـ من باب المقارنة بين (عملين صادرين عن فنان واحد » .. فالاختفاء كحالة نضالية لم تتكرر عند الفنان نفسه في اعماله الروائية ، ولم تتكرر ـ كمحور اساس لموضوع الرواية ـ عند الكتاب العرب ، الا في « في بيتنا رجل » كما اشرنا ..

فما هي السمات العامة لمنهج حنا مينه الروائي ، ما هي تناولاته ، وطبيعة طرحه للشخصيات وللتجارب ..؟ لنعمق بذلك دلالة الاختفاء كظاهرة نضالية ..

اولا ـ في « الشراع والعاصفة » يبدأ حنا بهذه العبارة :

« المسافة بين العين ومرمى البصر ليست المسافة الوحيدة للرؤية، وليست كذلك المسافة الاكثر طولا او بهجة » ص ١١ .

في هذا التحديد الفلسفي يبدأ حنا رواية البحر والرجال والارادة ، وهو لا يشغل نفسه بمعطيات ونقاشات فلسفية تستغرق صفحات ، بل نراه يعرج في الاسطر الاخرى مباشرة الى وصف الشاطيء ، والرمل ، واللاذقية ..

٢ ـ حسين مروة : دراسات نقدية في ضوء المنهج الواقعي ـ مكتبة المعارف بيروت .

لكنه بدأ حيث تبدأ الكلمة ، من منطلق : ففي البدء كانت الكلمة. وهي هنا لم تكن بمعزل عن الواقع الموضوعي ، بل انعكاسا له ، وبهذا فقد وضع النتائج ، قبل الاسباب ، ليربطها في ختام الرواية بذات المعطيات .. ـ من البحر .. والى البحر ـ ولكن وفق المنطق الآتي : ان نكون ، فكما يجب .. والا فاننا نسعى لنكون كما يجب .. هذا الشرط الحياتي الذي يحمل العزيمة والارادة عند « الطروسي » للعيش الافضل ..

اما في « الثلج يأتي من النافذة » فهو لا يكرر البداية ولا المنطق ، ولا المنطلقات ، لكنه يعمق ويؤكد ذات النتائج : الشرط الحياتي لارادة العيش الافضل :

(حين رأته مقبلا صاحت :

ـ الم يوقفوك بعد ؟)

بهذا التكثيف الحركي ، للواقع ، منحنا حنا ، البعد النفسي والحياتي للبطل ، منذ الوهلة الاولى ، وراح يوسع من هذا البعد وينميه ويطوره حتى غادر فياض بيروت ـ عائدا ـ الى دمشق ، من ذات الدرب الذي جاء منه ـ من الوطن .. الى الوطن . ولكن بنفس مناعة الطروسي ، ونفس ارادته : ان نعود مناضلا كما يجب ..

فحنا ، هنا ، صمم العمل بذهنه جيدا . ووضع البداية ، كما وضع النهاية ، بشكل مدروس ومقنن ، فهو قد اعتمد من القواعد الكلاسيكية للرواية: (الحادثة، او الحوادث المتسلسلة ، فالحبكة ، فالعقدة ، فحل العقدة ، فالنهاية الحتمية) واعتمد من اسس الرواية الحديثة : (المنلوج الداخلي ، واختفاء شخصية المؤلف ..) كمتدخل واضح في نمو وتطور وحوار الشخصيات والاحداث .. وهذا العمل بالطبع ، ينفي تهمة اعتبار « الثلج ..» عملا غير روائي !.

ثانيا : اعتمد حنا مينه العودة الى الاصول كلازمة لعمله الروائي .. ففي « الشراع والعاصفة » كان الطروسي بحارا .. فعاد للبحر من جديد ، ولكن ك « ريس » له مهابة .. وك « ريس » « على الطبيعة» أيضا ..

وفي « الثلج » كان فياض مناضلا في دمشق ، ثم عاد الى دمشق ليمارس النضال هناك « على الطبيعة » ايضا ..

وهذه المعادلة تقابل معادلته الاولى في العودة ولكن بالارادة الافضل والعيش الافضل والاوفر كرامة .. فاذا كان في المعادلة الاولى يثبت العودة المكانية : البحر في « الشراع » ودمشق في « الثلج » .. فهو يتمم معادلته الاولى بثانية يحقق فيها العودة الارادية : البحار في « الشراع » ، والمناضل على الطبيعة في « الثلج »

ثالثا : عنصر المواجهة ، لدى بطل حنا ، لم يضمر .. حتى في حالة عدم ممارسة « شكل » العمل المطلوب .. فالطروسي كان صاحب مقهى على البحر ، لكنه ظل يعيش حالة الابحار ، ووضع التجار ، في مواقفه التي ينتصر فيها لعمال البحر ضد ابي رشيد ومدير الميناء وغيرها .. ثم في مجمل تحركاته وتصرفاته : ضد صالح برو .. ومع « البرحموني » ضد الطبيعة الظالمة ، ومع تجمعات مستمعي اذاعة برلين والتنظيمات المعادية للاحتلال ضد المحتلين والامبرياليين عموما ..

فمع ان الطروسي كان « بعيدا »في « الشكل » ـ عن ممارسة مهنته المباشرة كبحار .. لكن فروسية البحار لم تضمر عنده ، في كل تصرفاته واعماله حتى عاد للبحر ..

وفياض في « الثلج » كان يواجه السلطة الرجعية في لبنان.. كان ضدها ، لا لانها بدأت المعركة معه ـ حسب ـ بل لانها تخدم ـ ايضا ـ المصالح المعادية للطبقة العاملة ولجماهير الشعب الكادحة التي كان فياض معها ..

اذن فهو يواجه نفس معطيات العدو المشترك وقد تكون نفس اساليبه .. ومع انه كان في حالة اختفاء ـ لكنه اختفاء واع ... اختفاء منظم ، لا يقل اهمية عن العمل النضالي « على الطبيعة » وبشكل

علني الذي كان يمارسه خليل غزالة في العمل النقابي ولجنة اضراب عمال البرق ، لذا فان فياض تخطى حالة السلب في الاختفاء – حين انخرط في العمل كأجير في « مطعم الجبل » ومع عمال البناء وفي « مصنع المسامير » . . وكانت شخصيته تنمو ، وتتفير ، وتتنامى، وتتوتر ، تبعا للاحداث ، وانعكاساتها ، حتى تفجرت لديه في الختام ، وعاد الى دمشق وهو يصرخ :« ابدا لن اهرب بعد الان !» ..

لقد كان فياض يعيش صراعا حادا مع نفسه والاشياء المحيطة به ، ورغباته ، وطموحه ، وذكرياته التي تتداعى كمنلوج حاد ، ملون ، يغرق ذهنه بصور شتى ..

رابعا : ان روايتي حنا : « الشراع ..» و« الثلج .. » تتسمان بالتسجيلية المشذبة – كما كانت « المصابيح الزرق » ايضا فيتسجيليتها ولكن غير المشذبة – لحد ما – .. وتتسمان كذلك بشفافية محببة الى النفس ، وهي قريبة للوثائقية الامينة في واقعيتها ، لكن حنا لا ينقل صورة الواقع كما هي ، بل انه يحاكي نشاط الواقع ..

وهو هنا في محاكاته لنشاط الواقع ، لا يقدم نسخة منقولة من خلال ورق شفاف او طبع صورة منه ، بل المشاركة في البناء اغلاق للعالم الذي لا يزال في طور التكوين مع اكتشافه ابقاعه الداخلي » – كما يقول روجيه غارودي – فواقعية حنا هي التي « تعرف بالاعما ل،لا قبل الاعمال » لذا فان سلوك فياض لم يكن مفتعلا ، ولا يمكن لحنا ان يفتعل ، لديه ، حوارا ونقاشات ليبرهن من خلالها ان فياض كان كاتبا معارضا ولما يزل ، بل ان تلقائية مسار الرواية قدمت لنا فياض مناضلا طيبا وبسيطا وغير معقد ، قطعا .. وأشارات ولمحات عرفناه اديبا ، وكاتبا قصصيا ، ومعارضا .. لذا فحنا ، هنا فنان ،مارس حريته ، كما مارس فياض حريته ، بوعي واقعه لا بافتعال هذا الواقع: « فالفنان لا يرسم الواقع كما هو ، مستقلا عنه ، وبلا مشاركة فيه، لانه غير مكلف فقط بتقديم تقرير عن نتيجة المعركة بل انه واحد من المناضلين ، له نصيبه من المبادرة التاريخية ومن المسؤولية وهو مطالب، ككل انسان آخر ، لا بالاكتفاء بتفسير العالم ، ولكن بالمشاركة في تغييره ..» (٣)

وفياض فعل ذلك ، واسهم فيه بوعي .. كذلك « الطروسي » في « الشراع والعاصفة » ..

واذا كان اتهام « الثلج ..» بانها بحث عن « انفصال المفقود » فهذا الاتهام مردود .. لانه ينطلق من نظرة خاطئة في فهم الواقعوتحرك الشخصيات او نمو الاحداث ، انه ينطلق من نظرة فوتغرافية للواقع وللفهم الروائي ..

وهذا جهل لمهمة الفنان التي تختلف بالطبع عن مهمة الفيلسوف او المؤرخ ، فالفنان « ليس مطالبا بان يعكس الواقع باكمله » ، وهنا فعل ذلك ، بالنسبة لفياض ، فلم يعكس التفاصيل الكاملة لنشأة فياض في دمشق وحتى صيرورته كاتبا معارضا ..

ان حنا اكتشف سلبيات الواقع في لبنان ، كما اكتشفها فيدمشق. لذا فقد عالجها عبر فياض والآخرين : خليل غزالة ، ام بشير ، صاحبة مطعم الجبل ، ابو روكز ، شقيقته ، دنيز وامها ، جوزيف وهناء .. وكل الشرائح البشرية والحياتية في « الثلج ..»

لذا فان مواقف فياض ، في اختفائه ، كانت تنبع « من داخل الحدث الروائي ، او من ثنايا سلوك الاشخاص على نحو من العفويات الفنية الخالصة » كردود فعل ، حقيقية ، يمارس من خلال رصدها ووعي الموقف اللازم ازاءها ، حريته كفنان ، ككاتب ، وكمناضل ..
وان تعرية هذا الواقع ، هو وعي للضرورة ، عبر الممكن منالامور،

وهو ممارسة للحرية .. اذن ، ففياض ،هنا ، اختار البديل الاروع ، البديل الثوري الذي ، عبر ممارسة تكتيكات عديدة ، تتحقق بواسطته الستراتيجية الصحيحة لبناء المجتمع المنشود ، خلل « المشاركة في تغيير » المجتمع القديم ..

خامسا : يعتمد حنا مينه الصور الحياتية والطبيعية ، وهو لا يعطي اهمية اساسية لفلسفة الحوار و« فصل العلاقات بين الناس والاشياء، والجو الروائي لذاته وان خلا من قضية الانسان ، وجوهرية الاسلوب دون الوضوح » كما تفعل الرواية الحديثة .. فحنا يطرح شخصياته عبر « مشكلهم » الحياتي ، اولا ثم سلوكهم وفكرهم : لذا فهو يصور شخوصه من الداخل والخارج ، بلا افتعال ولا تضخيم ، بل بتلقائية وعبر « المناخ الروحي والاجتماعي الذي ينتمون اليه » ..

اذن ، فهو يسعى لتحقيق الصدق والجمال الفطري في الاشياء .. لا الجمال على حساب الصدق .. فالصدق – كما يقول جارلاند – «صفة اسمى من الجمال ، وان اشاعةالعدل يجب ان تكون مطلب وغايةالفنان، في كل مكان ، ان مجرد الجمال في الفن يبدو تافها، والنجاح علىحساب سعادة الآخرين انانية مريعة » وهذا ما اكده حنا عبر شخصية فياض في اختفائه في بيت خليل غزالة ، ثمفي بيت جوزيف خاصة بعد فقدانهم لعملهم ..

ان روعة الصدق ، هناء تتجلى لدى فياض في بحثه عن العدل في العلاقة والوجود – ولم يستطع حتى وهو يمارس اختفاء اضطراره ، ان يكون سعيدا او مرتاحا على حساب سعادة الاخرين .. وهذا الوعى الدقيق ، لواقع الاختفاء ، هو حالة يقظة وصفاء دائمين في المناضل الثوري.. .

سادسا : يعتمد حنا في روايتيه « الشراع » و« الثلج ..» الشخصية المحورية المركزة ويغذيها بشخوص اخرين ، لهم كثافتهم ايضا .. الطروسي في « الشراع » وفياض في « الثلج » ، لكنه لا يدفع بالبطل للتكامل ، الا عبر لوحة الاحداث والاخرين ، لذا فهو يتناول الاخرين ، في نقلات واقية ، ليتمم الجو والمناخ العام في مجتمع الرواية وهو ليس كبطل « طقوس في الظلام » لكولن ولسن – جيراردسورم – حيث « قبع » الكاتب « في اعماق بطله » بل هو قريب الى « سعيد مهران » نجيب محفوظ في « اللص والكلاب » في تمرده على الواقع المعاش ، وفي تمثل الجو العام والاحداث المرتبطة بالبطل .. ومع ذلك ففياض والطروسي ، يخرجان عن مسار « البطل وحده » الى واقع « البطل والآخرين » ..

ان اختيار فياض للاختفاء ، لم يكن ، منذ مجيئه الى بيروت ، اختيارا اوحد ، بل كان فياض مشحونا بحب العمل النضالي العلني، وهو حين غادر دمشق فلكي يتحرر من قيود الاختفاء ، لذا كان يتساءل في الحوار بينه وبين خليل (ص ٢٢ – ٢٣) عن الحرية في لبنان ويؤكد له خليل :« ان اللاجئين من امثاله مطاردون لذا ينصحهبالاختفاء « حتى يبحث امره ويجد وسيلة لمساعدته » :

(– لا تغادر البيت

وقال فياض في نفسه : « اذا كنت ساختبىء فلماذا جئت اذن ؟ »

وهنا يؤكد لنا حنا بان فياض لم يكن يريد حياة الدعة والهدوء والاستسلام والتطفل على الاخرين .. لقد كان فياض حرا ،حتى في اختفائه ، ومناضلا ضد الصمت والانزواء والسلبية .. فالحرية « لا تكون ابدا حرية مجردة ، فهي لا تنشأ من « العدم » والحرية الاصلية تمتد جذورها الى ثقافة الماضي وتشمل معارك الحاضر والمهام المشتركة الملقاة على عاتق بناة المستقبل ، ولا يستثنى الفنان – او الكاتب

---

٣ – روجيه غارودي: واقعية بلا ضفافه الطبعة العربية– ص٢٢٦

المعارض ـ من هذه القاعدة » لذا فـان وعي فياض ، وبالتالي وعي حنا مينه ، بالمشاركـة في خلق وتجديد الانسان لنفسه باستمرار ، هـذا الوعي هـو « اعلى اشكال الحرية » وهـو الذي دفع فياض ليغادر بيت خليل وجوزيف ومصنع المسامير والمطعم وعمال البناء ، .. انه كـان يريد لنفسه التجديد باستمرار .. وهذه دلالة عافيـة في شخصية المناضل الثوري ...

سابعا : المونتاج في المنلوج .. عند حنا .. يأخذ شكلا سينمائيا ، لذا ، فالشراع والعاصفة تصلح للسينما صلاحيـة « الثلـج يأتي مـن النافذة » ،وهذه المنلوجات التي ،كـان كثيرا ما يجلس « الطروسي » مواجهـا البحر ، لاستعادتها ، تداعت في ذهن « فياض » بذات القـوة التي يعيشهـا الانسان في وحدته وضيقه :

((نزهـة هناك في بلد بعيد ـ .. نصحته الا يخاطر بنفسه، ولما خاطـر تركته وسافرت الى ابنتها ـ لا العين ترى ولا القلب يوجـع ـ « هربت من وجع القلب فلحقها .. ـ وهي تبكي الآن ـ « فياض اختفى ياسالم ، انقطعت اخباره ! ـ لا تخافي عليه يا نزهة ، ياما انقطعـت اخباري وعدت ـ « ولكنك كنت تلحق هواك » ـ كله واحد .. الهـوى هوى دائمـا .. لا احد يموت قبل يومه ـ « وتذكرني بالموت ؟ »ـ((وماذا فيهـا ؟ سنخلد ؟ الموت حق .. مقدر »ـ « انت بدون قلب » ـ وهذا حسن .. كنا صرنا امرأتين في بيت واحد ..) ص ٢٧

هذا المنلوج،الذي يشتمل في داخله حوارا يتجسد بصورة واضحة للاب والام ، كمـا يتخيلهمـا « فياض ، يغني العمل الروائي بالصورة .. والابعاد .. وقد استفاد الكاتب من صور الماضي وتداعيات الذهن، لتحويل القارىء من حالة الحصار في الفرقـة ، الى حالة المشاركـة في الزمـن ،في الاحداث ، في التاريخ .. عبر الصلات الاليفة بين الناس والاشياء التي احبهـا فياض .. واحبته ..

ومن خلال هذه الميزة استطاع الكاتب ان يعمق أبعاد روايته،بمعطيات حياتية واجتماعية حية ، الى جانب هذا الحس الحنون باشياء الماضي، المليء بالعطف والتواجد والشاعرية . .وهذا جانـب مضيء في حالة الاختفاء .. أيضـا ..

ثامنا : ان القيم الجمالية التـي طرحتها « الثلـج يأتـي مـن النافذة » تركزت ـ ونبعت ـ من تلك المواقف الداخلية لفياض وجوزيف وخليل وبقيـة الشخصيات الروائية ، التي تعانقت مع الاحـداث، وتصاعدت معها ،حتى شكلت هي والاحداث كامل صفات اللوحة التعبيرية .. ثم انهـا تنبع من تلقائية تحـرك الشخصيات تلـك ، وملامحهـا وتصرفاتهـا ، هذه التلقائيـة التي لم يظهر على الكاتب انه اصطنعهـا او افتعلهـا ..

ان « المواقف الداخلية » و« اللوحات التعبيرية » جاءت متساوقة مع مجرى الاحداث ، غير غريبة عنها ، ولا هي شاذة وسطها ..

ثم هناك تلك اللغة ، كمعطى جمالي وديناميكي .. اللغـة المشبعة بالحيويـة والروح الشعبية ، انها مستمدة من الحياة اليومية للناس في البيت والعمل والشارع متأثرة ـ في جوانب معينة ـ بتلـك الروح المسيحية السمحة والتقاليد الشعبيـة الموروثة في ذهن الانسان الطيب البسيـط ...

فاللغـة تحمل ايقاعها الخاص ، وتأثيرهـا الايجابي على القارىء فهي اليفـة ، عند حنا ، تحسها منك ، وتحسها تخاطب وجدانك مباشرة دون حواجز .. وهذه « العامية » المهذبة الطيبة ، كالخبز والحقيقة، كانت هي الاخرى تتناغم بايقاع واحد مع الشخصيات والاحداث ،وتشكل مع « المواقف الداخلية » و « اللوحات التعبيريـة » ثلاثية الجمـال عند حنـا ...

تاسعا : وحدة النضال ، تظهر لدى حنـا فـي عملـه الروائي ، كتركيب اساسي لجميع بنيات الروايـة .

هذه الوحدة العضويـة لمكونات الروايـة في تركيب شخوصهـا واحداثهـا ، لتحدد مسارا هادفـا يخـدم قضيـة النضال التحرري الصاعد .. وهي عند حنـا لـم تقتصر على « الثلج .. » بل هي امتداد « للمصابيح الزرق » وعبر « الشراع والعاصفة » ..

وان الوحدة العضويـة لشخصيات واحداث الرواية ، تنبع من توزيعات متوازنـة في درجـة نضاليـة هذه الشخصية او تلك ،بحيث انهـا اذا ركبت تركيبـا عموديـا ، على قاعدة افقية ، هي مساحة الارض والاحداث والزمن ، نجـد ان قمة العمل ، هي دائما ، قمـة ثوريـة ، ومسعى من اجل الانتصار ومن اجل مواصلة النضال .. وليس الفردي، هنا ،، منفصـلا عن الجماعي ،بل يلتحم به في هذه الوحدة الاساسية من الفهم التام لمجريات الاحداث ونموها وتركيـب وبنيـة الشخصيات وتطورهـا ، لتصب في الهدف العام ..

فلقـد كان « الطروسي » في « الشراع .. » بنية ، الى جانـب بقيـة بنيات العمل الثوري ، وان كـان الشخصية المحورية في العمل الروائي ، ومع انه لم يمارس عمـلا منظمـا وفي حزب سياسي ،كفياض، لكنه يلتقي معه في ملامحه العامـة :

الثورة .. هي الهدف .. فهـو انسان مغير ، بطل من هذا العصر وهذا الزمـان .. ليس ناتئا فيه ، ولا شاذا عنه ، او غريبا عليه .. لذا فان النموذج الثوري في « الثلج يأتي من النافذة » لم يكـن ((فياض)) وحده ، بل هـو « فياض » والاخرون ، شخوصا واحداثا ،وهنا تكمـن الرؤيـة السليمة لفهم طبيعـة المرحلـة ، وكيفية تحرك المناضلين داخلها لدفعهـا والاسهام . في تعجيل نضوج شروطها الموضوعية والذاتيـة للوصول بهـا الى درجـة الانقـاد ..

عاشرا : المرأة ، كمقابل موضوعي يخلق التوازن لدى البطل، وفي مجمل الروايـة . ومع ان عنصر المرأة اساسي لدى حنا ، كمرتكز .. لكننـا ادرجنـا النقطـة ،هذه ، في الختام ، لاسبـاب فنية ..

فخلق عنصر التوازن النفسي والحياتي لدى فياض ، لم يكن النضال وحده ، بل كـان ذكرى المرأة او وجودها الحسي ، المباشر ،في((الثلج)).. كمـا كانت بالنسبة للطروسي ، مجموع هذه التوازنـات ايضـا ،الحلمية في((ماريا)) ، والحسية ـ اليومية في((ام حسن)) ..

ففياض كان يحقق توازنه الوجداني ، عبر النافذة ، من خلال دينيز كمقابل حسي ـ في بيت ابي خليل ـ والمعلمة ، فـي تذكره لطفولته ووطنه ، اي عبر نافذة الذكرى ، وتذكر قريبته التي بعثت له بقنينة العطر ، في((مصنع المسامير)) ومشاهدة فتاة النافذة الاخرى،في الجبل.

هذا التوازن ، حقق فيه حنـا ، قيمة « التضاد » الحياتـي ، والجمالي ، حتى في عنوان الرواية : « الثلج .. يأتي من النافذة »، ولم يقل : الدفء ، والتوازن الوجداني .. وفي المعطى الاخر ، لمعنـى العنوان : الخطر ، الذي يدلف من النوافذ .. مع ان هذا المعطـى ، ضعيف ـ في التفسير المتنوع ـ لدلالة العنوان .. ولكن الدفء ،يأتي ليس بمذكرات الثلج ، حسب ، بل وعبر النظرات وايماءات العيـون ، والترقب ، والمعنى الذي تمنحه هذه الاشيـاء وكثافتهـا فـي النفس البشريـة .. وفي الزمـن ..

اذن ، فالمرأة ـ الحلم .. والمرأة ـ الحس .. والمـرأة الوجدانات البريئة .. كانت عوالم اخرى،في((الثلج..)) كمـا هي في((الشراع..)) ـ الى جانب ـ المقابل الآخر لطبيعـة المرأة ، في كفاحها وفي معاناتهـا الحياتية ، والمنزلية : ام بشير ، ام خليل ، زوجة خليل . .الخ .. فالمرأة هي العالم الذي يلون روايـات حنا مينه بالتناغم الوجدانـي الحـار .. ، وموقف « فياض » مـن دينيز ، والفتاة الاخرى ، وكل نساء « الثلج » هو موقف مثالي ، اعني انه مستمـد من قيم مثاليـة نبيلـة يتعاطاها « فياض » في معاملـة المرأة حتى لو كـان قد اشتهاها ...

اغنية حب

يا غنوتنا المفروسة في قيثار القلب

لفـي جيدك بالشال الاحمر

الدمع الفاضب : اعراس تنبت في الاطلال المسببة

القلب النازف : اطيار تصدح في عش الماسورة

الوجه المحروق : ظلال الصفصاف الشامخ في الرمـل الشاعـل

المسمار المطلي بأشواق الانسان العاشق .

أنهار من فرح تجري في الفردوس الاخضر

يا منديل الشوق الطائر في اعيننا المصلوبة

ما اجمل هذا العالم في خدك وردا احمر

* * *

يا نجمتنا المسجونة في تابوت الظلمة

لفي جيدك بالشال الاحمر

الشرفات المجروحة : ازهار تطلع فـــي الاسلاك وفـي الحجر العاقر

الضوء الاحمر في الشارع والاحداق المهجورة :

قنديل العابد في محراب الحب الابيض .

السكين الفارب في جسد المعشوقة في كل الازمان :

ديدان ترحل في اشجار الايدي المصفرة

يا اشعار القلب التائه في ازمان الغربة

ما اجمل هذا العالم في جيدك عقدا احمر

شفشاون (المغرب)

عبد الكريم الطبال

وبالضرورة ، فهو يحتاجها عضويا .. لكنه ، كشف عـن نكران ذات ، وتضحية ، تكون ملازمة للاختفاء ـ عادة ـ .. كحالة نضالية ..

اذن ، فهذه الدورة النضالية ، التي مر بهـا « فياض » في«الثلج يأتي من النافذة » ،كانت اشقى دورات العمر ، واكثرهـا لذة ، وطراوة، لكاتب ، بامكانه وهـو في عز شبابه ، ان يوالي السلطات الرجعيـة ويعيش مرفها ، لكنه لم يكن الكاتب (المحض) ، بـل كـان الكاتـب المعارض ، السياسي والمناضل والانسان .. وهذا حسبـه .. وحسب حنا .. ان يفخر به .

ويكون مجد الرواية ، في الختام ، انهـا اعطت فنيا وسياسيـا انسانيا صورة الاختفاء كاشقى حالات النضال وكونه اصعب من حيـاة السجن والمنفى ، .. واذا كان هذا الفهم قـد بعـد او غاب عن تناوله روائي مثل الاستاذ فاضل السباعي، فلانه ،حسب تقديري ، كان بعيدا عـن ادراك ابعاد هذه التجربة وعيشها .. لذا كـان بعيدا عن فهـم تناقضاتهـا واستيعاب ابعادهـا وابعاد البطل في الرواية ..

وبعـد هذا وذاك .. ستظل « الثلج يأتي من النافذة » اضافة طيبة للروايـة العربيـة ، بتجربتهـا وتلقائيتها ، وطيبة شخصياتها .. كما ظلت وستظل « الشراع والعاصفة » محببة الى القلب وسيظـل « الطروسي » بطـلا شعبيـا اثرى عبره ، حناميته ، ابطال هذا العصر واضاف اليهم واحدا .. من المميزين .. ذوي الكثافة الخاصة، كمـا ستظل تجربة اختفاء فياض حالة نضالية دوما .

بغـداد

محمد الجزائري